منهج المدونة المغلقة والدَّلالة القرآنيَّة

لفظة (تـأويل) أنموذجا

أ.د. حسن عبد الغني الأسدي

جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الإنسانيّة

Method Almudawana Enclosed
uranic semantics of the word (Taweel)

Ass.Dr. Hassan Abdelghany Al-Asadi
Karbala University\ College of Education for the Humanities
hjawad57@yahoo.com

Abstract

The search in the Koranic semantics Entries closed approach which is consistent with the interpretation of the Holy Koran. The search began in the indication (**Taweel**), first with the language of the word, and to morphological build user in Koran to denote will show thing and highlighting, which is the first semantic attribute employed by the Koran in this word. He then went Towards extrapolate resources use this word in the Koran; as well as we did with all the word meant a statement meaning of Quranic during the search, as well as when to be those words in conjunction verbally (accompaniment) what was its impact actor in determining the significance Qur'anic word in question. The result was important to find that significant Qur'anic word (**Taweel**) means: Important finding was represented to search the significance of Quranic word (interpretation) related to (the facts) are not words I mean, that interpretation is not detecting other connotations borne by word or installation, but interpretation: it is what will happen in the future than in the Collapse of the unseen, and hermeneutics is that knowledge that enables given that science to tell what it will be accidents. And some of it attached special day when it comes any interpretation of the event, and the interpretation of conversations, including a knowledge used by the Prophet Yusuf (peace be upon him) in his two companions to tell what will happen to them, and Egypt, which revealed their visions Almnamah. As well as the command when good servant but God asked him to change the nature of what is prescribed in the lives of the persons concerned. It can then understand what is stated in AlImran as mentioned in other verses of the Holy Qur'an.

Keywords: curriculum, closed code, Quranic significance, interpretation.

الملخص

يعمل البحث في إطار المنهجيّة الجديدة لفهم القرآن التي تأسست في ظل رؤية دلاليّة تستوحي مفهوم استنطاق النص عبر ما يشتمل عليه من مفردات وتركيبات. وتمثّل الآية أو الجملة استجاب لبؤرة لغوية هي الأصل في إحداث الترابط بين الألفاظ.. ويطلق على تلك المنهجيّة **(المدوّنة المغلقة)**.

بدأ البحث في دلالة **(تأويل)** بالمادة اللغوية لهذه اللفظة، وبنائها على (تفعيل) المستعمل قرآنياً للدّلالة على إرادة إظهار الشيء وإبرازه، وهي السّمة الدلاليّة الأولى الّتي وظّفها القرآن الكريم في هذه اللفظة. ثمّ توجّه البحث نحو استقراء موارد استعمال هذه اللفظة في القرآن؛ وكذا فعلنا مع كل لفظة يراد بيان دلالتها القرآنية في أثناء البحث؛ ولاسيما تلك الألفاظ التي كوَّنت اقتراناً معها (أي: المصاحبات للفظة تأويل) لما لها من الأثر الفاعل في إظهار الدلالة القرآنية لهذه اللفظة. وقد تمثلت النتيجة المهمة للبحث بأنّ الدلالة القرآنية للفظة (تأويل) تتعلق بـ(الوقائع) لا بالألفاظ أعني أن التأويل ليس هو الكشف عن الدلالات الأخرى التي يتحملها اللفظ أو التركيب، بل التأويل: هو **ما سيحدث في المستقبل ممّا هو في طيّ الغيب، وعلم التأويل هو تلك المعرفة التي تمكّن الذي أُعطِي ذلك العلم أن يخبر عمّا سيكون من حوادث.** وبعض ذلك تعلق بيوم خاصّ يأتي فيه ذلك التأويل أي وقوع الحدث، كما أن منها تأويل الأحاديث وهي

المعرفة التي استعملها نبي الله يوسف(عليه السلام) في إخبار صاحبيه بما سيحل بهما، وبمصر مما كشفت عنه رؤاهم المناميّة. وكذا الأمر عند العبد الصالح إلا أن الله كلّفه بتغيير طبيعة ما هو مقرر في حياة الأشخاص المعنيين. ومن ثَمَّ يمكن فهم ما ورد في آل عمران على وفق ما ذكر في الآيات الأخرى.

الكلمات المفتاحية: منهج، المدونة المغلقة، الدَّلالة القرآنيَّة، تأويل.

توطئة منهجيّة:

قال تعالى: ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً**﴾(النساء82)

لعل من أبرز الخصائص النصيّة التّي يمتاز بها القرآن الكريم، وأشارت إليها الآية الكريمة تضافر أجزائه (**الألفاظ والآيات**) في تأكيد ترابطها الدلاليّ، وقد عبّرنا عن ذلك في منهجنا باصطلاح (واحديّة الدلالة القرآنيّة) للفظة عينها أينما أُستعملت في القرآن الكريم، ونعني بها أنّ اللفظة القرآنية أو ما يسلك مسلكها من بعض التراكيب تحمل دلالة واحدة وبذا فنحن ننفي التشارك الدلاليّ بين لفظة وأخرى. والآية بعد ذلك دالّة على أنّ فهم القرآن الكريم **بالْقُرْآنَ** نفسه، وهي صفة للقرآن اشتهرت عند المفسرين بـ(**تفسير القرآن بالقرآن**)[1]؛ لكن هذا الضرب من التفسير لم يشغل المساحة العلميّة التي يستحقها، ولعل مردّ ذلك عائد إلى عدم وجود خطوات منضبطة تكون آليّة منهجيّة لهذا النوع من التفسير؛ تحفظ له كيانه وتمنع اختلاطه مع غيره من ضروب التفسير. أو لعل الضبط الذي يستلزمه هذا النوع من التفسير لا يتلاءم والرغبة الجامحة لإخضاع القرآن الكريم لمسبقات مختلفة المشارب تسعى لأنْ يكون من القرآن ما يعزز مسبقاتها تلك. وعلى هذا كان السعيّ نحو وضع صياغة منهجيّة لفهم القرآن من القرآن نفسه، ويستلزم ذلك أن تكون خطوات هذا المنهج مستقاة من القرآن نفسه؛ لأنّ القرآن يعضّد بعضه بعضا ويشرح بعضه بعضا كما يفهم من الآية المذكورة، وآيات أخرى غيرها اتت على وصف القرآن. وقد سبق لنا تقديم الصياغة المنهجيّة لهذا التفسير في بحث مستقل[2].

إنّ هذا المنحى من فهم القرآن الكريم ومعرفة الدلالة القرآنيّة بمستوياتها المتعددة تعطي القرآن الكريم المنزلة الأولى في الكشف عن معانيه، ومن ثَمَّ فنجاح النص وحيويته تكمن في قدرته على اكتناز معارفه داخله؛ ولعل الآليّة التي يحفظ بها النصّ لفظيّا ودلاليّا من التحريف، وما يعتريه من تداعيات التأويليّة (الهرمنيوطيقا) ومناهج الحداثة تكمن في الخاصيّة الذاتيّة في أنه يفسر نفسه مصداق الحفظ وعدم قبول التحريف بحفظ ما يريد إبلاغه في مكوناته: مفردات وتراكيب، ومن أجدر بالقرآن بهذا !!!، وهو ميزان الهداية الشرعيّة ويضرب بما خالفه عرض الجدار كما نصّت عليه السنة النبويّة المباركة. وقد رجّح لي هذا التفسير اعتماد روحيّة بعض مناهج النظر اللغوي المعاصر ليكون منهجا عاما لفهم النصوص(مكتوبة أو مسموعة) وهو منهج (**المُدَوَّنة المُغْلَقَة**)؛ بوصفه إجراءً منهجيّاً لقراءة المدونات وهو يسعى إلى أن يعطي المدوّن الحقّ في أنْ يتحدث عن نفسه، ويحدد كيفيّة هذا الإعطاء. وهي روحيّة ترفض الأفكار المسبقة التي تنحو إلى فهم محدد للمدوّن باتّجاهٍ يتوافق مع ما كان سلفاً. فهذا المنهج يرفض هذا الانتحاء الآيديولوجي، ويوجب أن تكون قراءة المدوّنة نابعة من المدونة نفسها، لا من خارجها[3].

إنّ واحديّة الدلالة التّي أفادتنا بها الآية التي صُدِّر بها البحث؛ تنحو بنا إلى خاصيّة منهجيّة أخرى للقرآن الكريم تكمن في أنّ دلالة ألفاظه تتأتّى في ظلّ النظر إلى سياقها(سياقاتها) اللفظيّ. وههنا مسألة مهمة فما دام النظر يتمّ إلى المدوّن فالسياق الوحيد المعتمد في هذا المنهج هو السياق اللفظي(اللغويّ)؛ لأنّه السّياق الذيّ تكوّنه المدوّنة، وهو هيأتها اللفظيّة وسلسلة تتابع مكوناتها، وتعالقها بعضها ببعض، ولاسيما أنّنا في ظلّ بعض من التّصوّرات النّحويّة لكيفيّة تكوين الجمل وامتدادها في العربيّة وجدنا أنّ هناك

[1] يشوب هذا النوع من التفسير من عدم الضبط المنهجيّ ما يفقده صفة أن يكون تفسيراً للقرآن بالقرآن؛ فكثير ممّا يقدّم على أنّه من هذا التفسير ليس هو في حقيقة الأمر منه. يضاف إلى ذلك قلّة الروايات التفسيريّة التي تنحو هذا المنحى ما أدّى إلى ألّا يشغل هذا التفسير إلّا مساحة ضئيلة من عمل المفسرين. هذا على الرغم من عدّهم هذا التفسير في صدارة أضرب التفسير. الأمر الذي دعانا إلى العمل على صياغة جديدة لهذا الضرب من التفسير. وقد أنجزتُ في هذا المجال طائفة من البحوث.

[2] وهو البحث الموسوم بـ(منهج الدّلالة القرآنيّة للألفاظ، مدخل لتفسير القرآن بالقرآن) نشر بمجلة آداب المستنصريّة العدد49، 2009.

[3] ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه:18-20.

لفظة مركزيّة في الآية تسلك مسلك المولِّد لهذا السياق ببعديه التكويني، والدلالي لا العكس الذي تعارف عليه السّياقيّون (أي: دلالة اللفظة وليدة سياقها).

تتجلى مركزيّة اللفظة نحويّا بقدرتها على استدعاء ما يناسبها لبناء جملتها عبر تكوين المجالات النّحويّة لتشغلها الألفاظ المناسبة للتّعبير عن الوظائف النحويّة المختلفة على نحو يجعل المسند متحكّما بالألفاظ التي تظهر في إثره[1]. فاللفظة القرآنيّة تمثّل بؤرة دلاليّة تتجمَّع حولها طائفة من الألفاظ التي تنسجم معها دلاليّاً. ويعني ذلك أنّ في الآيات ألفاظاً تسلك في مواضعها مسلكاً تكون به لفظة رئيسة، لها القدرة على استدعاء الألفاظ الأخرى ممّا تتسق معها دلاليًّا، وبهذا فهي تكوّن تركيبه وتستدعي ألفاظه المناسبة. ويتجلّى السياق ههنا عبر كل الموارد التي استعملت فيها اللفظة في القرآن الكريم. وأضيف إلى ذلك أن السياق القرآنيّ سياق متّسع يشمل ما نصطلح عليه بـ(**سياق المدوّنة**)، فيشمل كل موارد استعمال اللفظة أو التركيب، بل يفيد من سياقات الألفاظ التي تظهر مع تلك اللفظة أي مصاحباتها، على نحو يشبه المسارات الشبكيّة التي تنسجم، وما يتيحه الاستعمال القرآني لإظهار تلك الشبكة الدلاليّة.

يبتدأ البحث في أول أمره عند المعنى اللغويّ الأوليّ الذيّ استعملت فيه اللفظة موضع البحث محاولاً أن يرجع تعدد المعاني اللغويّة إلى معنى واحد هو أساس تلك المعاني. وإدخالنا المعنى اللغوي في منهجنا هذا يرجّحه الدليل القرآني بقوله تعالى:﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾{إبراهيم4}. فالوسيلة هي لسان القوم (لغتهم، وركائز مخاطباتهم الجمعيّة). والمعنى الأوليّ يعدّ موطئاً تقام عليه الدلالة القرآنيّة، وقد لا تقتصر عليه، إذ للقرآن مجاله الإبداعيّ، ولله فيه المثل الأعلى. وأقرب الأمثلة لما نقوله ههنا ما عرف بالألفاظ الإسلاميّة[2]، وهي ألفاظ جرى استعمالها بدلالات جديدة لم تكن العرب قد استعملتها لتلك الألفاظ من قبل؛ وبدءاً سيشمل مفهوم الألفاظ الإسلاميّة ألفاظ القرآن كلها، فهناك مستوىً من الدلالة جديد هو الدلالة القرآنية.

اقتران التأويل بالمحكم والمتشابه:

تعد لفظة (**تأويل**) أبرز الألفاظ القرآنيّة، وهي أكثر الألفاظ دوراناً على ألسنة المتكلمين، وأقلام المفسرين، والمشتغلين بعلوم القرآن الكريم؛ لارتباط دلالتها بفهم القرآن نفسه فعقدت الأبواب لتحديد دلالتها. ويرى المتتبع أن الآراء تكاثرت في تحديد دلالة لفظة التأويل مع اقترانها عندهم بلفظتي (المحكم والمتشابه). وشمل هذا التعدد مجالاً أوسع عند المعاصرين عندما قرنت هذا اللفظة بمستويات قراءة النصّ القرآنيّ بالانفتاح على مديّات جديدة لفهم النص عبر الهرمنيوطيقا[3]. وكلّ ذلك بموازاة منجزات التفسير (المتعدّد تراثيّاً، وزمنيّاً، ...) بوصفه الآليّة الأكثر شيوعا لفهم القرآن. وقد تأسس هذا الاهتمام البارز بهذه الألفاظ على قوله تعالى:

﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾{آلعمران7}.

والآية هي أول الموارد القرآنيّة استعمالاً للفظة(**تأويل**)، ويظهر فيها ارتباط الألفاظ الثلاثة المذكورة، وبذا فإنّ أيَّ نظرة لفهم دلالة لفظة منها تجد لها أثراً واضحاً في دلالة اللفظتين الأخريتين. من هنا نذكر أنّ أقوال المفسرين في تعيين دلالتي المتشابه والمحكم زادت على ستة عشر قولاً[4]!. ولم يقتصر الأمر على دلالة هذه اللفظة، بل اتّسع إلى من يعلم التأويل، فذهب بعضهم إلى الحكم بالوقف

[1] وقد تنبّه سيبويه لهذه القدرة التكوينيّة في المقولات الفعلية، ويبدو أنّ مفهوم التعدّي عند سيبويه يمثّل مصطلح تلك القدرة مع دخول اعتبارات الصحة النحويّة التي نوّه إليها سيبويه في باب الاستقامة من الكلام والإحالة، ينظر للتّوسع: مفهوم الجملة عند سيبويه: 154وما بعدها(التكوين الخطيّ للجملة عند سيبويه).

[2] وهي الألفاظ التي تغيّرت مدلولاتها في العصر الإسلاميّ عمّا كانت عليه في العصر الجاهليّ، ويعدّ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي(ت322هـ) أول من صنّف كتابا جامعا في ذلك سمّاه(**الزينة في الكلمات الإسلاميّة العربية**). ينظر مقدمة المحقق27.

[3] طرح في عهد قريب في المباحث القرآنية بكونه ضمن المناهج التفسيرية للقرآن عنوان: تفسير الهرمنيوطيقا، ومن خصائص هذا الفهم أنّ التفسير ليس فهم وإدراك مراد المؤلف؛ فنحن نواجه النصّ لا المؤلف، والكاتب هو أحد قرّاء المتن ولا مرجح له على غيره؛ لذا ففهم المتن هو عمل لا نهاية له، ولذلك هناك قراءات متعدّدة للنص. ويرى نصر حامد أبو زيد أنّ القرآن نصّ لغويّ ومحصول ثقافيّ ولسانه مختصّ بالمخاطبين ولا يمكن فصله عن بيئته وثقافته التي نزل فيها. وإنّ نص القرآن تكوّن عن طريق الواقع التاريخيّ وثقافة عصره. وللتوسع ينظر: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيريّة للقرآن:297-309.

[4] ينظر: المتشابه والمحكم في القرآن الكريم(بحث في دلالة الألفاظ القرآنيّة)، مجلة جمعة كربلاء، المجلد السابع –العدد الأول، إنسانيّ، 2009م:83.

اللازم على لفظ الجلالة في قوله تعالى:﴿...**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**...﴾ من الآية الآنفة الذكر ليقول: إنّ الله وحده هو الذي يعلم تأويله، ورفض آخرون هذا القصر[1]، وهو المشهور عند أئمة أهل البيت(عليهم السلام)، وروي عنهم أنّ أول الراسخين في العلم رسول الله (ﷺوآله) وبعده أهل بيته، ورثة علمه[2].

وقد أُختلف في هاء(**تأويله**) في الآية الآنفة الذكر: هل تعود على الكتاب أم تعود على المتشابه منه؟. وشاع عند معظم المتأخرين[3] أنّ التأويل يراد به(**المعنى الباطن**) للفظة أو الآية، يقابله(**المعنى الظاهر**) وهو المعنى اللغوي، أو المستعمل في كلام العرب، ووضعوا بهذا الصدد قاعدة تفسيريّة، ولغوية هي الاعتداد بظاهر اللفظ، ولا ينتقل إلى المعنى الباطن إلا لضرورة. ولسنا هنا بصدد تتبع أقوال العلماء في التأويل، فقد كتب في ذلك الكثير[4]. وقد أردت بهذه العجالة التنويه إلى المساحة العلمية المهمة التي يشغلها التأويل مفهوما وتطبيقا. وذكرنا إياها ليس من باب تبنّيها، فمنهج بحثنا بخلاف ذلك، ولا يعني هذا رفض هذه الأقوال جملة واحدة، بل المسألة تتعلق بطبيعة المنهج المختار ومن ثمّ إذا قادنا المنهج إلى نتيجة قال بها بعض السابقين أو المعاصرين فلا حرج في تبنّيها لأنّها على وفق ذلك من نتائج المنهج لا من المسبقات في فهم كلام الله تعالى.

ومن هنا فمحاولتنا هذه تسعى لأنْ تأخذ نصيباً من النّظر والتّقويم أو الّردّ والقبول، ولاسيما أنّها تنمو في ظل تفسير القرآن بالقرآن.

المبحث الأول

(تأويل) في اللغة والاصطــلاح

(تأويل) في اللغة:

ترجع لفظة(تأويل) إلى المادة اللغوية (أوّل) وتأسيُس بِنائِه من همزةٍ وواوٍ ولامٍ. ومنهم من يقول: تأسيسُهُ من واوين بعدهما لام، ولكلٍّ حجّةٌ، كما في العين[5]، وقال ابن فارس:((**الهمزة والواو واللام أصلان: ابتداء الأمر وانتهاؤه. أما الأوَّل فالأوّل، وهو مبتدأُ الشيء**))[6]، والأول في الأعداد ما له الصدارة أي: الابتداء، وإليه ترجع بقية الأعداد، وليس هو من الأضداد، كما رأى المعجميون بل دلالته على الرجوع والمآل.

قال الراغب: ((**التأويل: من الأوْل أي الرجوع إلى الأصل، ومنه الموئل للموضع الذي يرجع إليه، وذلك هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علماً كان أو فعلاً**))[7]، وقال:((**الأوّل هو الذي يترتب عليه غيره ويستعمل على أوجه**))[8]. ويذكر ههنا قول الأعشى:

على أنّها كانت، تأوّل حبّها........ تأوّل ربعيّ السقاب فأصحبا

[1] قال في مجمع البيان:2/ 214في الوصل ((**...وهذا قول ابن عباس والربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير واختيار أبي مسلم وهو المروي عن أبي جعفر(عليه السلام) فإنه قال كان رسول الله أفضل الراسخين في العلم قد علم جميع ما أنزل الله عليه من التأويل والتنزيل وما كان الله لينزل عليه شيئا لم يعلمه تأويله وهو وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله ومما يؤيده هذا القول أن الصحابة والتابعين أجمعوا على تفسير جميع آي القرآن ولم نرهم توقفوا على شيء منه ولم يفسروه بأن قالوا هذا متشابه لا يعلمه إلا الله**)) وروي الوقف عن **ابن عمرو ابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر بن عبدالعزيز وأبي الشعثاء وأبى نهيك، وهو مذهب الكسائي والفراء والأخفش وأبى عبيد وحكاه ابن جرير الطبري عن مالك واختاره**، أما الوصل فهو قول **ابن عباس** حيث نقل عنه أنه قال: أنا ممن يعلم تأويله وعن **مجاهد**. ينظر: المعنى القرآني في ضوء اختلاف القراءات:97، وينظر معجم القراءات445/1.

[2] ينظر: تفسير العياشي:187/1. والميزان في تفسير القرآن:58 و81-82.

[3] ينظر: الميزان في تفسير القرآن:21/1.

[4] لقد تمّ النظر إلى كثير مما جاء عن أئمة أهل البيت في تفسير القرآن بوصفه تأويلاً لدلالة الآيات القرآنية، ووضع بعض المعاصرين روايات أهل البيت في فقرة خاصة بعنوان البحث الروائي، الأمر الذي نعتقد أنه كان سببا في أنْ يبقي على النظر إليها بوصفها مستوى آخر من فهم الدلالة القرآنية، فتمّ عزلها عن المستوى الأول لتفسير القرآن.

[5] ينظر: العين:200/1. مادة (أول).

[6] مقاييس اللغة:160/1.

[7] مفردات ألفاظ القرآن:36.

[8] مفردات ألفاظ القرآن:36.

((قال أبو عبيدة: تأول حبّها أي تفسيره ومرجعه))[1]. ونُقِل عن التهذيب قوله:**((وآلَ اللبنُ إيالاً: تخثَّر فاجتمعَ بعضُه إلى بعضٍ))**[2]. **((قال أبو منصور: يقال أُلْتُ الشيءَ أَؤُوله إذا جمعته وأَصلحته، فكان التأْويل جمع معاني أَلفاظ أَشكَلَت بلفظ واضح لا إشكال فيه. وقال بعض العرب أَوَّل اللهُ عليك أَمرَك؛ أَيجَمَعَه. وإِذا دَعَوا عليه قالوا: لا أَوَّل اللهُ عليك شَمْلَك..))**[3]. وقال: **((الأَوْلُ الرجوع آلى الشيءُ يَؤُول أَولاً ومآلاً رَجَع وأَوَّل إليه الشيءَ رَجَعَ هو أُلْتُ عن الشيء ارتددت. وفي الحديث: من صام الدهر فلا صام، ولا آل أي رجع إلى خير... وقوله: آلوا الجمال: ردّوها ليرتحلوا عليها... وأَوَّلَ الكلامَ وتَأَوَّله دَبَّره وقدَّر هو أَوَّله وتَأَوَّله فَسَّره وقوله عزّ وجلّ:﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ {يونس39} أي لم يكن معهم علم تأْويله؛ وهذا دليل على أَن علم التأْويل ينبغي أَن ينظر فيه، وقيل معناه لم يأْته مما يؤُول إليه أَمرهم في التكذيب به من العقوبة))**[4].

ممّا سبق فالمعنى اللغوي للتأويل يتضمن ابتداء الشيء وانتهاءه، والعود أو الرجوع، واجتماع الأمر وإصلاحه. وسُمِّيَ المآل لأنّه يؤول إليه، والأوّل المبتدأ به، وهو الأصل الذي يؤول إليه، وتجتمع إليه الأعداد.

أمّا(تأويل) فهو تفعيل من أوّل، وقد ورد في القرآن من هذه الصيغة ما يدلّ على إظهار الشيء، وإبرازه على نحو الاستغراق كما في دلالة أوزان الألفاظ المناظرة:(تَقْدِيراً، تَقْتِيلاً، تَنْزِيلًا، تَفْسِيرًا، تَفْصِيلًا، تَبْتِيلًا) الواردة في الآيات الآتية:

1- قوله تعالى:﴿...**وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا**﴾{الإسراء12}.
2- قوله تعالى:﴿...**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**﴾{الفرقان2}
3- قوله تعالى:﴿**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا** ﴾{الفرقان25}.
4- قوله تعالى:﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** ﴾{الفرقان33}.
5- قوله تعالى:﴿**مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً**﴾{الأحزاب61}.
6- قوله تعالى:﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا** ﴾{المزمل8}.

على هذا فالتأويل: تفعيل من أوّل وهي صيغة دالة على إظهار ما يؤول إليه الشيء وإبراز كونه أولاً. ويعني العلم بالتأويل أو معرفته: امتلاك القدرة على إظهار ما يؤول إليه الشيء، ويرجع إليه وهو مبتدئه، على نحو استغراق تفصيلات ذلك المآل. بقي أنّ هذا التأويل عام في الأشياء، أمّا الدّلالة القرآنيّة فلها شأن آخر غير هذا العموم، سيتّضح لاحقاً إن شاء الله تعالى.

الدلالة الاصطلاحية للفظة (التأويل):

وهي الدلالة التي يتبنّاها ذوو الاختصاص وبالنظر إلى أنّ هذه اللفظة من الألفاظ المستعملة في أكثر من حقل معرفيّ؛ فهي ترد عند المفسرين، وعند المتكلمين والفلاسفة والعرفانيين، والمتصوفة. وترد أيضاً في الفقه وأصوله، ويرد استعمالها في علوم اللغة، فقد أدّى ذلك إلى أن يكون لكلٍّ تخصص نظرته في تحديد دلالتها الاصطلاحية من جهته؛ بله التعدد في العلم الواحد. ولا نعدم التأثير المتبادل بين هذه الحقول. وقد ربط القرآن هذه اللفظة بفهم الكتاب أو فهم المتشابه(والكتاب عند المفسرين القرآن نفسه)[5]، على ما خطّ القرآن في الآية السابعة من سورة آل عمران الآنفة الذكر، وهو أمر له أهمية لتأسيس منحى جديد من فهم القرآن هو التأويل إلى جانب مقابله التفسير.

وقد حاول كثير من المفسرين أن يحدّ من انتشار هذه اللفظة فقصر تعلّقها بالله تعالى، لكن جهودهم انحسرت، إذ إنّ القرآن استعملها بنحو لا يجعلها مقصورة عليه تعالى. ثمّ إنّ هذه اللفظة دخلت دائرة الأخذ والردّ، وتشعّب الاختلاف حولها باتجاهين

---

[1] لسان العرب:194/1 مادة (أول).
[2] لسان العرب:194/1 مادة (أول).
[3] لسان العرب:1/ 194 مادة (أول).
[4] لسان العرب:194/1 مادة (أول)، وههنا تظهر الصيغة الاصطلاحية التي آل إليها التأويل.
[5] لقد جاء استعمال لفظة الكتاب في مواطن كثيرة في القرآن الكريم، واشتملت تلك المواطن على أوصافه التي تجعلنا نقول أن لهذه التسمية دلالة غير القرآن ونحن بصدد بحث مستقلّ لبحث دلالة هذه اللفظة. وللمزيد في هذا الموضوع ينظر بحث: المتشابه والمحكم في القرآن الكريم(بحث في دلالة الألفاظ القرآنية) مجلة جامعة كربلاء/ مج7/ العدد1/ إنساني/2009.

رئيسين:((**الاتجاه الأول: يرى أنّ التأويل من مقولة المعنى والمفهوم. الاتجاه الثاني: يرى أنّ التأويل ليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ، بل هو من الأمور العينية التي تستند إلى البيانات القرآنية من حكم أو موعظة أو حكمة، وأنّه موجود لجميع الآيات القرآنية محكمها ومتشابهها**))[1].

وانشعب من الاتّجاه الأوّل شعب منها ما خلط دلالة التأويل مع دلالة التفسير فعدَّ التأويل والتفسير بمعنى واحد، وهو ما جاء عن مجاهد ومحمد بن جرير الطبري، وهو الشائع بين قدماء المفسرين[2]، وانضوت تحت هذا طائفة من الآراء:

1. إنَّ التفسير أعم من التأويل وأكثر استعماله في الألفاظ المفردة، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل.
2. التفسير بيان معنى اللفظ الذي لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والتأويل تشخيص أحد محتملات اللفظ بالدليل استنباطاً.
3. التفسير بيان دليل المراد، والتأويل بيان حقيقة المراد، مثاله قوله تعالى:﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾ {الفجر14}، فتفسيره: إنَّ مِرْصَادِ مِفْعَال من قولهم: رَصَدَ يَرْصُدُ إذا راقب، وتأويله: التحذير عن التهاون بأمر الله والغفلة عنه.
4. إنَّ التفسير بيان المعنى الظاهر من اللفظ، والتأويل بيان المعنى المشكل.

وربط بعضهم التأويل بمجال الاستنباط والنظر وعلَّقه بالدراية، وربط التفسير بالإتباع والسماع، وعلَّقه بالرواية[3].

ورأى آخرون أنّ لكلٍّ من التأويل والتفسير دلالته التي تميزه عن صاحبه، فذهبوا إلى القول بأنّ المراد بالتأويل هو **معنى آخر غير معنى ظاهر اللفظ،** ويبدو أن هذا المعنى شاع عند المتأخرين: مفسرين وغير مفسرين. فعرّفوا التأويل بأنّه: حرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به. وعلى هذا فالتأويل يحتاج إلى دليل. ويبدو أنّه من هنا جرى ربطه بالمعنى الباطن ويقابل التفسير المتعلق بالمعنى الظاهر، فتحوّلت العلاقة بين المعنيين إلى علاقة تقابل (ظاهر– باطن) و(محكم– متشابه) بعد أن كانت علاقة تجاور(معنى راجح – معنى مرجوح).

وترتبط هذه النظرة بالمجال المفسَّر والمؤوَّل، إذ الأخير خاصّ بالكلام الذي يمكن حمله على غير ظاهره، أما الأول(أي المجال المفسَّر) فيشمل الكلام كله. وهناك مغايرة في نوع الحكم الذي يصدره المفسِّر والمؤوِّل، فالتفسير هو القطع بأنّ مراد الله كذا، أما التأويل فهو ترجيح المحتمل بدون القطع، وهناك من نظر في طبيعة الدليل المعتمد، فالتفسير عنده: هو بيان مدلول اللفظ اعتماداً على دليل شرعي، والتأويل: هو بيان اللفظ اعتماداً على دليل عقلي[4].

أما الاتجاه الثاني: الذي يرى أن التأويل من الأمور العينيّة، فتأويل الكلام من الحقائق الثابتة في الخارج بما عليه من صفاتها لقوله تعالى:﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(52) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾{الأعراف52–53}.

إنما ذلك مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه من القيامة وأشراطها كالدابّة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ومجيء ربّك والملك صفاً صفاً، وما في الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار... وفسّر ابن عباس تأويله في الآية بتصديق وعده ووعيده، أي: يوم يظهر صدق ما أخبر به من أمر الآخرة[5]. ويُشْكَل على هذا المعنى ما ورد في سورة الكهف فهناك تأويل للحوادث التي شاهدها موسى(عليه السلام) ممّا قام به العبد الصالح، ومنه التأويل الذي جاء في سورة يوسف(عليه السلام).

وربط صاحب الميزان التأويل بمفهوم التنزيل، فعرّج على تنزيل القرآن وقوله تعالى:﴿ **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**﴾{ الحجر21 } فعنده أنّ نسبة التأويل إلى المعارف والمقاصد المبينة نسبة الممثل إلى المثال، وأن جميع المعارف

[1] أصول التفسير والتأويل:299.
[2] ينظر: أصول التفسير والتأويل:299–300.
[3] ينظر: الميزان في تفسير القرآن:46/3، وأصول التفسير والتأويل:300–301.
[4] ينظر: علوم القرآن: 262.
[5] ينظر: أصول التفسير والتأويل:305-309.

القرآنية أمثال مضروبة للتأويل عند الله فالآيات ((**تدلّ على أنّ تأويل الآية أمر خارجيّ نسبته إلى مدلول الآية نسبة الممثَّل إلى المَثَل، فهو وإن لم يكن مدلولاً للآية بمالها من الدّلالة لكنّه محكيّ لها محفوظ فيها نوعاً من الحكاية والحفظ، نظير قولك: "في الصيف ضيعتِ اللبنَ "، لمن أراد أمرا قد فوّت أسبابه من قبل، فإنّ المفهوم المدلول عليه بلفظ المثل، وهو تضييع المرأة اللبن في الصيف لا ينطبق شيء منه على المورد، وهو مع ذلك ممثل لحال المخاطب حافظ له يصوّره في الذهن بصورة مضمَّنة في الصورة التي يعطيها الكلام بمدلوله**))[1]؛ لأنّ الآيات أو بالأحرى القرآن الكريم وهو في أمّ الكتاب أعظم ممّا يمكن للناس الوقوف عليه بعقولهم وأفهامهم؛ لذا فقد أُنزلت البيانات القرآنية منازل قريبة من أفق إدراكهم. فعلى هذا القول لكلّ آية من الآيات القرآن تأويل. ومع السعة في هذه النظرة للتأويل والطابع الرمزي للآيات القرآني، يمكن أن نقول إنّ الدلالة القرآنية لهذه اللفظة مما لا دليل على سمتها الرمزية، والأولى أن يتمّ النظر إلى هذه اللفظة بمواردها كلها التي استعملها القرآن، مع الأخذ بعين الاعتبار البيئة اللفظية التي ظهرت فيها، وسيتكفل البحث بتوضيح ذلك، علما أنّ مسارنا في البحث يختلف عن مسارات أصحاب الآراء السالفة، وإن سيظهر بعض اتفاق مع جزء من توجهات من ذكرنا.

المبحث الثّاني

موارد استعمال لفظة (تأويل) في القرآن الكريم(وتأويل الأحاديث في سورة يوسف عليه السلام)

استعمل القرآن الكريم لفظة تأويل في **سبعة عشر مورداً**، توزّعت على خمس عشرة آية في سبع سور، كلها في النصف الأول منه. فآخرها جاء في سورة الكهف. وجاءت اللفظة في هذه الموارد: نكرة لم يلحق بها شيء، ومضافة إلى لفظة أخرى، ومضافة إلى هاء الضمير. واستعمل القرآن من ألفاظ المادة اللغوية (**أول**) ألفاظ عدَّة هي: الأوَّل، والأولى، والأوَّلون، والأوَّلين، وأوَّلنا، وأولاهما، وأولاهم، وغيرها من ألفاظ يمكن أن تعود إلى هذا الجذر. ونحترز من أنّه لا يمكن التعويل على الأصل الاشتقاقي ولا المعنى اللغوي للفظة في الدّلالة القرآنيّة بحسب منهج بحثنا؛ إلاّ شيئا يسيراً مما نسميه المعنى اللغوي الأوليّ الذي لم تتسرّب إليه آثار الاصطلاحيّة، التي كثرة في معاجمنا اللغوية فكانت موسوعية لا معجميّة خالصة. وسيكون ذكر الآيات مبتدئاً بما جاء في سورة يوسف(عليه السلام) لتعدد استعمالها في هذه السورة.

تأويل الأحاديث عند يوسف(عليه السلام):

وردت لفظة تأويل في هذه السورة في ثمانية موارد: ثلاثة منها بمركب إضافي هو (**تأويل الأحاديث**)، وواحد لكلّ من (**تأويل الأحلام**) و(**تأويل رؤياي**). وجاء (**تأويله**) في ثلاثة موارد. وبنظرة عجلى إلى موارد (**تأويل الأحاديث**) يجدها ذكرت بوصفها كرامة عُليا كرَّم الله تعالى بها نبيَّه يوسف (عليه السلام)؛ فمنزلتها بعد الاجتباء بالنبوة، وقرنت باستعمال الفعل(**علَّم ويعلِّم ونعلِّم مقرونةً بفاعلها جلّ وعلا**) ما يعني أنّ (تأويل الأحاديث) أمر عظيم علّمه الله تعالى نبيّه يوسف(عليه السلام) على نحو الخصوص. قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾{يوسف6}.

وارتبطت هذه المعرفة بالتمكين ليوسف في الأرض، قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾{ يوسف21}. وأدرك نبيّ الله عِظَم ما عُلِّم؛ ولا سيما بعد أنْ رأى ما رآه من وقائع، قال تعالى حكاية لقوله: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾{ يوسف101}.

إذن فهي نعمة إلهيّة، ومنزلتها عظيمة، ولا يمكن أن يكون تعبير الأحلام، والرؤيا المتعارف عليه مصداقا لهذه النعمة، بل هذه جزء صغير من تلك على ما يبدو. فضلاً على ذلك فلو كان المقصود منها تفسير أحلام، لَمَا كان هناك من حاجة إلى استعمال تأويل

[1] الميزان في تفسير القرآن: 52/3. وينظر: أصول التفسير والتأويل:329وما بعدها.

الأحاديث للدلالة عليها. وهو أمر لا نشك في بطلانه، لما يقتضيه التعبير القرآني من دقّة تعبّر عن المرادة تعبيراً كاملاً. وهو أساس منهج بحثنا كما تقدّم.

وفي سبيل مقاربة دلالة (تأويل الأحاديث) ننوّه إلى ملاحظتين جديرتين بالتأمل في ظلّ سياقهما:

أولاهما: اقترن هذا المركب الإضافي بألفاظ دالة على عظم معرفة هذا الأمر فهو من تمام النعمة على نبي الله يوسف، وعلى آبائه يعقوب وإسحاق وإبراهيم (عليهم السلام)، ويعني ذلك أنّ معرفة تأويل الأحاديث يختصّ بها الأولياء المقرّبون من الله عزّ وجلّ.

الثانية: أعقب ذكر هذه النعمة قوله تعالى: ﴿**والله غالبٌ على أمْرِه...**﴾، وقوله: ﴿**فَاطِرِ السموَاتِ وَالأَرْضِ..**﴾ وهي ألفاظ لها دلالتها على أنّ إرادته لا يمتنع منها شيء. وقدرته المطلقة على تهيئة الأمور وإيقاع ما يريد. ولم يستعمل التركيب الجمليّ ﴿**والله غالبٌ على أمْرِهِ**﴾ في غير هذا المورد، وهذه الغلبة تشمل أمره تعالى الذي هو إرادته الخاصّة كما في قوله تعالى:﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾{يس82}. فما أراده الله لنبيه يوسف (عليه السلام) في شخصه، وما تعلّق بحياته لا محالة واقع. ثمّ تبع ذلك ذكر فَاطِرِ السموَاتِ وَالأَرْضِ؛ إذ لابدّ من تهيأة الأمور لإحداث هذه الغلبة وإظهارها. وهي الصفة المهيأة لعالمي الغيب والشهادة وعلمهما.

ونرى أيضاً أنّ المواضع الثلاثة الآنفة الذكر التي استعمل فيها (تأويل الأحاديث) قد سبق بحرف الجر (**من**) ودلالته على التبعيض ظاهرة؛ فعلى هذا عُلِّم نبيّ يوسف (عليه السلام) جزءاً من تأويل الأحاديث لا كلّه. فقد قال: ﴿**... مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**﴾ ولم يقل (ويعلّمك أو نعلّمه تأويل الأحاديث). كما لا يمتنع كون من لبيان الجنس بأنّ يوسف علّم صنفاً من العلوم، أو صنفاً ممّا أطلق عليه تأويل الأحاديث. والملاحظتان السابقتان ومجيء (**مِن**) لها أثرها المهم في تعزيز الدّلالة التي ستظهر لاحقاً لتأويل الأحاديث. وهذا السياق اللفظي مع تأويل الأحاديث لم يرد مع (تأويل الأحلام) و(تأويل رؤياي) اللتين وردتا في السورة ذاتها، وقد بدتا جزءاً من علم نبيّ الله؛ ولم يتعلقا بتعليم الله إياه على النحو الذي كان مع تأويل الأحاديث؛ كما في قوله تعالى:

=﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا...**﴾[يوسف100].

=﴿**قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ* وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ**﴾[يوسف44، 45].

ومن المعلوم أنّ الأخيرتين لم يقتصر علمهما على أحد بعينه بل تكونا عند المؤمنين مع اختلاف درجاتهم وتكون عند غيرهم أيضاً[1]. وعلى هذا يبدو أنّ الآيات في سورة يوسف المباركة قد أشارت إلى أنّ لدى نبيّ الله علماً أوسع من تأويل الأحلام. ويلحظ أن الحدث المناسب للرؤيا هو التعبير لا التأويل قال تعالى على لسان الملك: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ**﴾{يوسف43}، لكنّ يوسف يقول لأبيه يعقوب (عليهما السلام) عند تحقق ما رآه: ﴿**هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ...**﴾ فاستعمل تأويل ولم يستعمل تعبير ما يشير إلى أن تفسير الأحلام منطوٍ تحت تأويل الأحاديث.

وكذا كان الحال مع رؤيا صاحبيه في السجن؛ فبعد أن قصّ صاحبا السجن عليه رؤياهما، قال تعالى: ﴿**نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾{يوسف36}. وهو موقف تزوّدنا فيه الآيات القرآنيّة بتفاصيل عن طبيعة القدرة التي علّمها تعالى نبيّه(عليه السلام). بدأ يوسف جوابه لصاحبيه بذكر معرفته بما سيأتيهما من طعام، وهي ممّا علّمه الله، ثم ذكر أسّ العقيدة الإلهية، وهو التوحيد مع جمع أسمي الله الواحد القهّار بدلالة التفرّد والغلبة: ﴿**قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ لا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾{يوسف37}. وقوله: ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ**

[1] قال في جامع أحكام القرآن: 129/9 عن النحاس: ((**... وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا... وعنى بالأحاديث ما يراه الناس في المنام، وهي معجزة له؛ فإنّه لم يلحقه فيها خطأ. وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، وكان نبينا صلى الله عليه وآله وسلم نحو ذلك، وكان الصديق رضي الله عنه من أعبر الناس لها، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم، والطبع والإحسان، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيب فيما ذكروا. وقد قيل في تأويل قوله: { وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } أي أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد**)).

الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾{يوسف39-**40**}.

إنّ استعمال لفظة (تأويله) واقترانها بالفعل (علّمني) مع حرف الجر مِن)، وهما اللّذان سبق أن اقترنا بـ(تأويل الأحاديث) في موارده الثلاثة الآنفة الذكر يحيل إلى أنّ يوسف (عليه السلام) قد عنى هنا تلك القدرة التي علّمه الله إياها، فذكر منها قدرته على إخبارهما بكل ما يأتيهما من طعام في حياتهما الآتية. ويعني ذلك أنّ نبيّ الله (عليه السلام) اطّلع على أمر هو من الغيب. ثمّ بيّن أنّه دلّ على صلته بالله تعالى (**ربّي**) ليظهر صلته بالله تعالى. وإنّ غيره من الأرباب لا يتجاوز وجود التسميّة التي أخترعها لهم من عبدوهم. فالله الذي علّمه هذا العلم الذي يعرف به ما سيقع لهما. ولو كان الأمر متعلق بتفسير حلم لما كان الأمر بحاجة إلى مثل هذه المقدّمة. ومن ثَمَّ فإنَّ علمَه بتأويل الأحلام لا يعدّ أن يكون جزءاً ممّا علّم؛ وختم قوله بتأكيد ما تقدَّم وأنّه ما أخبرهما به سيحدث حتما، قال تعالى: ﴿... **قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**﴾ {يوسف41} فهذا قول العالم المتيّقن ولا يقوله معبّر الرؤيا، بلا حاجة له فيه.

على هذا فتأويل الأحاديث لا يمكن أن نحصرها في القدرة على تفسير الأحلام فنساوي بين الأحاديث والأحلام أو رؤى المنام؛ وهو ما شاع بين عموم المفسرين، وعلى هذا قال الراغب الأصفهاني: ((قال عزّ وجلّ: ﴿**وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**﴾{يوسف101} أي ما يُحَدَّثُ به الإنسان في نومه))[1].

ويقتضي الأمر هاهنا الوقوف على الدلالة القرآنية للفظة (الأحاديث) حتى يتّضح جلياً عن أي تأويل تتحدث هذه الآيات الكريمة.

الدلالة القرآنية للفظة(الأحاديث):

لم تستعمل (الأحاديث) المعرفة بـ(**أل**) منفردة بل جاءت في مواردها الثلاثة مضافة إلى تأويل وهي حصراً في سورة يوسف(عليه السلام)، وجاء استعمال (أحاديث) النكرة في موردين هما:

1. قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ**﴾{المؤمنون44}.
2. قوله تعالى: ﴿**فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾{سبأ19}.

وفي البدء فإنّ التعريف في الأحاديث سيجعل من اللفظة ذات دلالة مختلفة عن لفظها النكرة، ولمّا كان منهج بحثنا يعتمد المدوّن في إقامة العلاقات بين الألفاظ لا الجانب الاشتقاقيّ فنرى في البدء التوجه نحو مواضع أخرى تزيد من تحديد دلالة هذه اللفظة وقد وجدنا أن القرآن الكريم قد استعمل [**المفرد اللفظي**][2] للأحاديث (أي: لفظة الحديث المعرف بأل). فقد جاء هذا اللفظ في ستة موارد سُبِق في أربعة منها باسم الإشارة (**هذا**)، وهو للقريب واستعمل (206) مرة في القرآن، وهي أقرب الموارد إلى لفظة الحديث لأفرادها الواضح في حين جاءت مضافة في (**أحسن الحديث**) وفي(**لهو الحديث**)، والموارد الستة هي قوله تعالى:

1) ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً**﴾{الكهف6}.
2) ﴿**أَزِفَتْ الْآزِفَةُ* لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ*أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ* وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ*وَأَنتُمْ سَامِدُونَ**﴾{النجم57-61}.
3) ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ*فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ* لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ* تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ* أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ* وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾{الواقعة:77-82}.

---

[1] مفردات ألفاظ القرآن:115. وينظر:جامع البيان في تأويل القرآن للطبري:560/15. وقد سبق مثله عن القرطبي.

[2] المفرد اللفظيّ: من المصطلحات التي وضعناها في ظل توجهاتنا المنهجيّة، للتأكيد على الطابع التدوينيّ واللفظي المستعمل في القرآن الكريم، وذلك تمييزا له عن المفرد الصرفيّ. فالمفرد اللفظي يشتمل على اللواحق والسوابق التي اتصلت بجمعه؛ فـ(الحديث) هو المفرد اللفظي للجمع(الأحاديث) بينما لفظة (حديث) هي المفرد الصرفيّ لها. والسّماء المفرد اللفظي لـ(السموات) بينما سماء النكرة هي مفردها الصرفي.

4) ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ *خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ *فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ**﴾{ القلم 42-44}.

5) ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾{الزمر23}.

6) ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾{لقمان6}.

إنّ التأمل في الموارد الأربعة، ولاسيما في الموردين: الثاني والرابع يجد ارتباطهما بما يحدث في المستقبل فمع السياق الآزفة الدّال على المستقبل. يظهر في مورد آخر أنّ للآزفة يوماً خاصّاً وُسِم بها وهو مما ينذر منه، قال تعالى:﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾{غافر18}، فالحديث يتوجه نحو ذلك اليوم المستقبلي، وكذا الحال في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ...**﴾ فإنّ لفظة الحديث تتوجه إلى ذلك اليوم، وهو يوم في المستقبل كما هو واضح.

أمّا المورد الأول فقد كانت صبغة المستقبلبارزة بقوله تعالى﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا *قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا *مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا *وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا *مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾{الكهف1-6}. فالحديث متوجّه نحو الكتاب الّذي يشتمل على الإنذار من بأسٍ شديدٍ يبشّر وينذر مما سيأتي. وكذا المورد الثالث الذي فالحديث متعلق بكتاب مكنون المذكور فيما سبقه.

وقد جاءت لفظة (**رِزْقَكُمْ**) في مع الفعل المستمر في قوله تعالى: ﴿**تعجَعْلُونَ رِزْقَكُمْ**﴾ لتحيلنا الى مصاحبة أُستعملت في سورة يوسف بقوله: ﴿**طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ**﴾. ويمكن القول بأن هذا السياق يفترض أن دلالة (**تُكَذِّبُونَ**، و**يُكَذِّبُ**) متعلّقة بأمر ما سيحدث في المستقبل، كما أن ينذر أيضا متعلق بذلك. وهو أمر جلل لورود لفظة (**تعجبون**) في (النجم59). وفي هذا الصدد جاء استعمال اللفظين (**عجبوا**) و(**عجباً**) متعلّقا بالشخص الذي يختاره الله تعالى لينذرهم عندما يكون المعني هذه الأمة؛ويكون توجه العجب نحو الرسالة لا الشخص المرسَل في الأمم السابقة ويأتي استعمال(**عجبتم**).

فلقد جاء في كلام نوحٍ وهودٍ (عليهما السلام) لقومهما قوله تعالى: ﴿**أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ**﴾{الأعراف63 و69} فعجبهم من مجيء ذكر على رجل، وجاء في هذه الأمة قوله تعالى:

= ﴿**وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾{ص4}[1].

= ﴿**ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ* بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾{ق2}.

= ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ* أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذ السَاحِرٌ مُّبِينٌ**﴾{ يونس1-2}.

ويتّضح أنّ عجبهم متوجه نحو رجل منهم بدليل قول الكافرين: ﴿**إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ**﴾.

ويمكن أن نعضّد الدلالة القرآنية للفظة الحديث الدّالة على ما في المستقبل عبر التركيب الجمليّ (**أنذر الناس**) الوارد مع لفظة الحديث في (يونس2) الآنفة الذكر، فلم يرد هنا ذكر ما يُنْذَر منه الناس، ولكن وجدنا تفسيره في موضع آخر من القرآن بعد تتبع استعمال هذا التركيب؛ فأظهرت الآية الآتية ما ينذر منه الناس[2]. قال تعالى: ﴿**وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ* وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ**

[1] يظهر مجيء لفظة (ساحر) في الآيتين أنهم رأوا من المنذر(صلى الله عليه وآله) شيئاً وجدوا أن أقرب ما يشنعون به عليه أنه (ساحر)، ويبدو أنه أمر يتعلق بذلك اليوم المحتوم.

[2] لمّا كان منهج بحثنا يتمسك بإيلاء الجانب اللفظي الاعتبار الأسمى ومن هذا المنطلق فإن بعض التركيبات اللفظية يجري النظر إليها كأنها لفظة واحدة.

أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ*وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ*فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾{إبراهيم44–47}.

فإنذار الناس من ذلك اليوم الذي يأتيهم فيه العذاب، فاليوم هو المنذر منه بما يأتيهم فيه لا أن يكون اليوم ظرفا للإنذار، ويظهر في الأفعال دلالتها على المستقبل، وهي [يأتيهم، و فيقول]. وهو وعد الله لن يخلفه. ومن الملاحظ أنّ الفعل (**يأتي**) أسند إلى لفظة (**العذاب**) في ثلاثة موارد أخرى هي: {النحل45، والكهف 55، والزمر55}؛ منها قوله تعالى: ﴿**أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ**﴾ {النحل45–46}. وهو إسناد يدل على أنّ هذا العذاب يتسم بالحركة، وهو متوجّهٌ نحو (**الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ**). وهم المعنيون أيضاً في:﴿**وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ**﴾{براهيم76} الآنفة الذكر. وهذا العذاب ليس هو عذاب في يوم القيامة ففي سياقه: (من حيث لا يشعرون، وفي تقلبهم) فهو يأتيهم وهو في أفعالهم ومكرهم.

وجاء في الكهف: ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا**﴾{الكهف55}. فقد يأتيهم ما جاء الأقوام السابقة ممن رفضوا إتباع رسلهم. أوقد يأتيهم العذاب الذي يبدو أنه عذاب بعينه لم يأت من سبقهم، وإلّا فلماذا أداة التخيير (**أو**) وهل سنة الأولين إلا ما حلّ بهم من عذاب.

وقد جاء في سورة فاطر ما يوضح سُنة الأولين وذلك بقوله تعالى: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا*أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا**﴾{فاطر42–44}. مع ما يظهر من تناظر لفظي مع ما مضى من آيات، فالعذاب الذي يوعد به هؤلاء الداخلة عليه مختلف عمّا سبقه من عذاب حلّ بالأمم السابقة.

ويمكن أنْ تعضد دلالة لفظة (**الحديث**) من تتبع تركيب قرآنيٍّ آخر، ففي المورد الرابع الآية: ﴿**فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ**...الآية﴾{النجم44} فقد أُستعمِل تركيب (**من يكذّب**) في موضع آخر يبيّن الطابع المستقبلي لما يقترن به هذا التركيب وذلك بقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾{ النمل82–83}.

فهناك (**إِذَا**) الدالة على الزمان في مستقبل الحياة على وجه حتم الوقوع، وهناك حشر بعد خروج الدابّة وهو حشر محدود (**مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا**) فهو جماعة معينة، فالحشر ليس عامّاً، كما هو واضح.

ولا يقف الأمر عند ذلك فهناك علاقات لفظية متداخلة نحتاج لتتبعها إلى ما يتجاوز حدود بحثنا هذا؛ لذا فإنّنا نكتفي هنا بالقول أنّه ظهر مما سبق بروز دلالة الحديث وهي مما يتعلّق بأخبار الغيب مما سيقع في المستقبل، وعدا ووعيدا، وإن غلب على ذلك بصفة الوعيد، للتكذيب الذي يواجهه.

أمّا مورد سورة الكهف وهو قوله تعالى: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً**﴾ {الكهف6}. فيظهر المعنى العام للآية أنّ هناك أمراً إلهيّاً ترك هؤلاء الإيمان به، فكأنّهم آمنوا بما سبق من رسول الله (ص)؛ لكنهم أعرضوا عن هذا الأمر، فظهر من رسول الله (صلى الله عليه وآله) شدّة أسفه من عدم إيمانهم ههنا. وجاءت لفظة (**آثَارِهِمْ**) لتربط هؤلاء بالظالمين المعرضين عمّا جاء به الأنبياء (عليهم السلام)، فاستعمال (**آثَارِهِمْ**) في القرآن تعلقت بهؤلاء؛ وهي سبعة موارد[1].

[1] الموارد السبعة هي: المائدة46، الكهف6، يس12، الصافات70، الزخرف22، الزخرف23، الحديد27.

وتكررت ألفاظ الشطر الأول من الآية السابقة في آية أخرى، وذلك قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ*إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ*وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ* فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون**﴾ {الشعراء3–6}.

إذ يلاحظ أن أجواء هذه الآيات أجواء مستقبلية قريبة من تلك الأجواء التي تدور فيها موارد ذكر لفظة الحديث، والعذاب مع بروز ألفاظ: (**يَأْتِيهِم، وكَذَّبُوا، وفَسَيَأْتِيهِمْ، ومُحْدَثٍ**)، ولفظة (**مُحْدَثٍ**) تشترك مع لفظة الحديث في الجذر اللغوي.

بقي من موارد ذكر لفظة (**الحديث**) قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ {الزمر23}. يظهر أنّ هذا الكتاب اشتمل على ما يكون أرفع درجة مما يتعلّق بما يحدث في المستقبل. و**أَحْسَنَ الْحَدِيثِ** نظير لطائفة من التركيبات القرآنية وهي: (**أحسن القصص**)، والله (**أحسن الخالقين**)، والله يجزي (**أحسن ما كانوا يعملون**)[1]. الدالة على أن أحسن هي أعلى رتبة يصل إليها جنس المضاف إليه، ولما كانت دلالة لفظة الحديث القرآنية قد تعلّقت بما يكون في المستقبل، إذاً فالكتاب الذي هو أحسن الحديث كما في الآية سيكون مشتملا على تفصيلات متعلّقة بما هو أرفع درجة من أحداث المستقبل[2].

بقي من موارد ذكر لفظة الحديث قوله تعالى:﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾{ لقمان6}.

ففي ضوء ما تقدّم من دلالة الحديث المتعلقة بحوادث المستقبل تذكر الآية أن بعض الناس يعمد إلى توظيف ما تعلق بوعد الله لإظهار دينه ووعيده وحوادث المستقبل في سبيل آخر غير (سبيل الله)؛ بأن يتخذها طريقاً للإضلال. ولو تأمّلنا الدلالة القرآنية للفظة (**لَهْوَ**) لوجدنا أنّ معالمها تتأسس على الفعل (اتَّخَذُواْ) ببنائه على الافتعال فيعمد إلى الحق ليكون طريقاً إلى الباطل، قال تعالى ﴿**وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...**﴾{الأنعام70}، وقوله: ﴿**الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**﴾ {الأعراف51}. من هنا فإنّ سماعهم **الحديث** لم يكن لهم إلا طريقا لعبثهم.

ويظهر (عذاب مهين) في الآية من سورة لقمان للدّلالة على ما سيحلّ بهؤلاء في المستقبل[3]. فمن الآيات التي جاءت على ذكره قوله تعالى:﴿**وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾ {الجاثية9}؛ إذ ربط بألفاظ مضى ذكرها وهي اتّخذ وهزواً وارتبط بـ(**آيَاتِنَا**) التي تظهر في موارد استعمالها أنّها ممّا يقع في المستقبل من نحو قوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ {فصلت53}

ويظهر أنّ دلالة (الأحاديث) أكثر سعة مما اشتمل لفظ الحديث، يشير إلى ذلك بعض كلام نبيّ الله يوسف (عليه السلام) فمع حوادث المستقبل تكون معرفة الأرزاق والآجال كما يظهر في قوله تعالى: ﴿**لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي**﴾{ يوسف 37}. وقد سبقت الإشارة إلى أنه تعالى (**علّمه من تأويل الأحاديث**)، ويفهم من بعض الآيات أن يوسف الصديق عُلِّم علوماً أخرى متعلقة بالحوادث الآتيّة وكيفيّة إدارة الموارد ومعرفته بمصادر ثروات الأرض بطريقة تعدّ في وقتها خارج الإمكانات الاعتيادية للبشر، لذا طلب أن تسند إليه إدارة أحوال مصر عند حصول سنوات الجدب، كما قال تعالى: ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ {يوسف55}. فاستعمل الصفة المشبهة (**حَفِيظٌ عَلِيمٌ**)، الدالة على الثبات، فكان بذلك عالما بكيفية حفظ ما تحت يديه أمينا، بل فوق ذلك وهو عليم بكيفية إدارتها يقيناً، والانتفاع بها للخروج من سنوات القحط.

[1] هي الآيات مرتبة: يوسف3، والتوبة121، والنحل96، والمؤمنون14.

[2] قد فصلنا في هذه الآية، وأوصاف الكتاب في بحث مستقل وهو منشور بعنوانه: المتشابه والمحكم في القرآن الكريم، سبق ذكره. وينظر أيضا: المثاني في القرآن الكريم دراسة دلاليّة لألفاظ القرآن الكريم في ضوء منهج المدونة المغلقة/ مجلة كلية التربية / عدد خاص ببحوث المؤتمر العشرون لكلية التربية /الجامعة المستنصرية/نيسان2013م.

[3] جاء استعمال(عذاب مهين): البقرة90، وآل عمران178، والنساء14، والحج57، ولقمان6، والجاثية9، والمجادلة 5 و16.

إذن فتأويل الأحاديث عند يوسف (عليه السلام) هي قدرة علمها له الله يظهر بها ما سيحدث في المستقبل من وجوه متعددة. ولعل شيئا من ذلك بدا من يوسف (عليه السلام) في مرحلة ما قبل سجنه وكان سببا في أن يعمدوا إلى ذلك، بل كان سببا في قيامهم بسجنه؛ قال تعالى:﴿ **ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ** ﴾{يوسف35}. وقد وردت لفظة **الآيات** في القرآن الكريم في إطار الدعوة إلى التدبّر فهي آيات بيّنة ومفصَّلة، كما يفهم من سياقاتها القرآنية؛ ولم يرد في سياق ذكرها[1] استعمال صيغ الكفر والاستهزاء والتكذيب بها (كما هو الحال مع لفظة **آياتنا**)؛ ما يدعو إلى القول بأنّ هذه الآيات لا مجال لنكرانها أو إخفائها ما يجعلها قريبة من القدرة التي عرفت عند يوسف (عليه السلام) بـ(تأويل الأحاديث)!.

لفظة (تأويل) في سورة الكهف

تتعزز الدّلالة القرآنيّة لـ(تأويل) وهي القدرة على إظهار ما سيحدث في المستقبل، في قصة أخرى أوردها الله تعالى في سورة الكهف بلقاء نبي الله موسى (عليه السلام) والعبد الصالح؛ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿**فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً**﴾(الكهف65) وسيظهر ههنا جانب آخر من هذه القدرة تتمثل في إمكان أن يأذن الله تعالى لبعض عباده أن يتّحكّم بمجريات بعض ذلك المستقبل، وهو أمر قريب ممّا دلت عليه الآية المباركة من قوله تعالى: ﴿**يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾(الرعد39).

إذ يلحظ اقتران هذا الموضع بلفظة (**علّمناه**) التي ظهرت في سورة يوسف (عليه السلام) مع تأويل الأحاديث. واستعمل موسى (عليه السلام) هذا الفعل بقوله تعالى:﴿**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً**﴾(الكهف66)، وقد تتابعت الأحداث، وموسى لا يطيق صبرا على ما يراه من هذا العبد الصالح من خرق السفينة التي ركبا فيها، وقتله الغلام، وإقامته الجدار؛ إلى أنْ حانت إلى لحظة الافتراق؛ قال تعالى: ﴿**قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً**﴾ (الكهف78)، فذكر العبد الصالح الأسباب الحقيقية لقيامه بهذه الأفعال وهي أسباب خافية عن موسى (عليه السلام)، وعلم ذلك العبد بما علّمه الله. فكان التأويل بيان تلك الأسباب التي جعلته يقوم بما قام به!

وقد استعمل العبد الصالح بعض صيغ مادة (**حدث**)؛ ففي حال إنْ صبر موسى (عليه السلام) على ما سيراه منه؛ قال تعالى: ﴿**قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً**﴾(الكهف70). إذ تأتي اللفظة (**أُحْدِثَ**) في الحقل الذي تنتمي إليه لفظة (الحديث) سواء من جهة اللفظ أم من جهة الدلالة. لكن الأمر ههنا مختلف نوعا ما؛ فالعبد الصالح يقوم بالتدخل لتغيير ما سيحدث في مستقبل القريب. وبذا فإنّ معرفة التأويل هي معرفة الحوادث التي ستقع في المستقبل على نحو الإحاطة بها، والقدرة على التصرف في ضوئها، لقوله تعالى: ﴿**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً**﴾(الكهف68)، وتظهر دلالة (**خُبْراً**) من اقترانها مع لفظة (**تُحِطْ**) للدلالة على العلم بالشيء على نحو معرفة حقيقته التي تخفى على الناس (فهي من الغيب)؛ وكذلك جاء هذا الاقتران في قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً**﴾(الكهف91)[2].

إنّ الذهاب بالتأويل إلى جهة بيان المعنى الباطن المقابل للمعنى الظاهر في ضوء ما تقدّم من الاستعمال القرآني لا ينسجم مع دلالته القرآنية هذه؛ لأنّ المعنى الباطن ليس معنى غيبيّاً، بل هو معنى حاضر، ولكنه في مستوى دلالي آخر غير المستوى الظاهر. زيادة على أنّ دلالة التأويل في الاصطلاح عند معظم المفسرين مقتصرة على المستوى اللغوي، في حين أنّ الدلالة القرآنية للفظة (تأويل)– كما تقدّم – لا تقتصر على هذا المستوى بل تتعداه إلى معرفة الحوادث التي كتب الله وقوعها في المستقبل ممّا هو من أخبار الغيب. وهو الأمر الذي سنعمل على توظيفه في فهم الآية السابعة من آل عمران وذلك في المبحث الثالث.

ثم إنّه لو كان المقصود بالتأويل المعنى الباطن وهو الذي لا يقع لأيّ كان؟ كيف نفهم أنّ هذا اللفظ أتى في وصف الوزن بالقسطاس المستقيم، بقوله تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾(الإسراء35). وكذا كيف

[1] جاء استعمال لفظة الآيات إحدى وثلاثين مرة في القرآن الكريم.
[2] لم تستعمل (**خُبْراً**) في القرآن إلاّ في الموردين المذكورين.

يكون الردّ إلى الله ورسوله أحسن تأويلاً كما قال تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ (النساء59) إلاّ إذا كان التأويل وقوع تلك الحادثة ومن ثم فمعرفة التأويل تمثّل القدرة على معرفة حقائق الأشياء، وأسبابها. علماً أن الآية تناولت التنازع فيما يمكن التنازع فيه، وعلى العموم فهو من الأفعال الواقعة فقد جاء استعمال: (تنازعوا، وتنازعتم، ويتنازعون) في القرآن في (حقل الأفعال المشاهدة). والآيتان السابقتان ختمتا بقوله: ﴿**ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾، فالقسطاس، والرد في المنازعات إلى الله ورسوله هما بمنزلة سواء في الحكم، وفصل الخطاب الذي يريدهما الله تعالى.

المبحث الثالث

متشابه الكتاب ومعرفة التأويل

تبيّن لنا ممّا مضى أنّ الدّلالة القرآنيّة للفظة تأويل هي: ما سيقع في المستقبل والكشف عن الأسباب الخافية وراء الأشياء ممّا هو غائب عن حواس الإنسان، وإدراكه وملاحظته المباشرة وهو من غيب المستقبل. ومعرفة التأويل هي القدرة على إظهار ذلك، وتبيينه. ومن هنا فإنّ ما ظهر من دلالة تأويل في الموارد السابقة يوضّح لنا أنّ تلك القدرة ليست معرفة دلالات الألفاظ والتراكيب القرآنية. ومن ثمّ فالتأويل لا يعبّر عن مستوى دلاليّ آخر لفهم القرآن الكريم أو فهم بعض آياته. وليس في آيات القرآن ما يدلّ على أنّ التأويل يتعلق بألفاظ القرآن الكريم؛ ومن ثمَّ فليس من القرآن ما يسمّى بتأويل القرآن، إلا أنْ يكون شيئاً يطلقه صاحبه. وهنا يجدر التنويه إلى أنّ استعمال تأويل القرآن عند المشتغلين بعلوم القرآن أتى عبر فهمهم أنّ لفظة الكتاب الواردة في الآية السابعة من آل عمران بأنها تعني القرآن. وذلك أمر فيه لنا قول آخر؛ والكلام في دلالة لفظة الكتاب طويل وهو على قدر عظيم من الأهمية؛ وقد خصصت له بحثا منفردا.

تأويل في آل عمران:

أشير في البدء أنّ من ثمار منهجنا في بعض البحوث السابقة وذكرناه في صدر البحث ما أطلقنا عليه بواحديّة الدلالة القرآنية ((**بمعنى أنّ لكلّ لفظة قرآنيّة دلالة واحدة، ولا يُمكن أنْ تدلّ لفظة واحدة على معنيين**))[1]. على ذلك فإنّ الدّلالة القرآنيّة للفظة تأويل التي توصّل إليها البحث ستكون هي الدّلالة عينها في كلّ موارد استعمال هذه اللفظة، ولاسيما في أوّل موارد ذكرها في القرآن وهو قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ**﴾(آل عمران7).

وقد نالت هذه الآية اهتماماً واسعاً من المفسرين والمشتغلين بعلوم القرآن؛ بل لعلها أكثر المواضع في القرآن جدلاً بين المختصّين، لاسيما أنها احتوت على قسمة آيات الكتاب على محكمات ومتشابهات، ولفظة تأويل. وقد ذهبوا في فهم دلالاتها مذاهب شتى، كما مرّ. ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل شمل الضمير في (**تأويله**)؛ أيعود على الكتاب أم على ما تشابه منه، ومن ثَمّ هل يقصر تأويله على الله وحده أم يشترك معه الراسخون في العلم. وعلى قدر ما تتعدد فهم المعنيين لدلالتي المحكمات والمتشابهات؛ فوصلت إلى نحو من ستة عشر رأياً؛ كان تعدد فهمهم لدلالة لفظة تأويل.

ولابدّ لنا قبل الولوج في البحث من وقفة قصيرة للمح دلالة لفظة (**الكتاب**) لما لها من أهمية بالغة في تعزيز الدلالة القرآنيّة للفظة (**تأويل**) التي خرج بها المبحثان السابقان. وعلى الرغم ممّا قيل في دلالته إلاّ أننا وبحسب منهجنا سنعمل على الكشف عن دلالتها عبر مواردها التي تظهر معها سياقاتها اللفظية واقتراناتها مع الألفاظ الأخرى.

[1] الدلالة القرآنيّة وعلامات الظهور في ضوء مبدأ عدم الافتراق(سورة مريم عليها السلام أنموذجا): 142. وينظر: الساعة في القرآن الكريم دراسة دلالية في ضوء منهج المدوّنة المغلقة:12.

وكان المفسرون قد ذهبوا إلى أنّ للقرآن عدّة تسميات منها الفرقان والذكر والنور والكتاب، وفي موارد أخرى ذهبوا أن الكتاب هو واحد من الكتب المنزلة على الأنبياء السابقين، وهو اللوح المحفوظ في موارد أخرى. الذي أريد قوله ههنا أن واحديّة الدلالة التي يتبناها البحث لا تعترف بمثل هذا التعدد الدلالي فمن سمات منهجنا الآنفة الذكر أنّ اللفظة في الاستعمال القرآنيّ لها دلالة واحدة في جميع مواردها. ويبدو أنّ الكتاب يمثّل حقيقة أخرى غير ما ذكر المفسرون فلكل سياقاته اللغوية. ولبيان ذلك سنعرض لموارد لفظة الكتاب إلاّ أنّنا سنقتصر هنا على تحليل بعض منها:

1. قال تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾{البقرة113}.

2. تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ** قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا**﴾{النساء105}.

3. قال **أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾{المائدة4}.

4. قال تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾{الأنعام38}.

5. قال تعالى: ﴿**ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ**﴾{الأنعام154}.

6. قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾{النحل89}.

7. قال تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا**﴾{الإسراء58}.

8. قال تعالى: ﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ**﴾{يونس1}.

9. قال تعالى: ﴿**المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾{الرعد1}.

تظهر الآيات السمات الآتية للكتاب:

1- أنزل على أنبياء الأمم السابقة كموسى وعيسى(عليهما السلام) وقد تلاه اليهود.

2- أُنزل على النبيّ محمد(ﷺوآله) وأن فيه ما يحكم به بين الناس، والحكم محتاج الى التفصيلات الجزئية للأحكام.

3- الكتاب المنزل على رسولنا هو أوسع من الكتاب الذي أنزل من قبل على اليهود والنصارى، وهو مهيمن عليه.

4- يشتمل الكتاب على تفصيل كلّ شيء وهو تعبير مع موسى(عليه السلام)، وهو تبيان لكلّ شيء مع نبينا (ﷺوآله).

5- فيه ذكر ما جرى على كل قرية جاءها العذاب، وهو مدوّن في سطور، فالكتاب مدوّن ذو سطور.

6- الحروف المقطعة التي ذكرت في أول بعض السور القرآنية آيات لذلك الكتاب. ما يبرز سمة مهمة في تدوينه، إذ تمّ على وفق رموز حرفية لا رموز لفظية كما القرآن. ويبدو أنّها الطريقة المختارة للاكتناز ذلك الكم الهائل من المعلومات الخاصّة بتفاصيل كل ما يحدث، فهو قريب من كتاب مبين الوارد في قوله تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾{الأنعام59}.

فالسمات التي تظهرها السياقات اللفظيّة للفظة الكتاب تنحو بنا للقول بأنّ للكتاب ليس هو القرآن الكريم. ويترتّب على هذا الأمر أنّ تقسيم الآيات على: آيات محكمات، وآيات متشابهات الوارد في آل عمران لم يعنِ به آيات القرآن الكريم بل المعني به آيات الكتاب، ولذا كانت المحكمات ﴿...**مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**...﴾{آل عمران7}. علما أنّ ذكر المحكمات والمتشابهات ليس قسمة على جهة الحصر؛ وذلك لموقع الجار والمجرور(**منه**) في الآية من آل عمران؛ ولو أريد أن يكون التقسيم على جهة الحصر للزم

تكرر منه مع القسم الثاني أيضاً، أي (منه آيات محكمات... ومنه آيات متشابهات). ولمّا لم يكرر منه لزم القول بعدم حصر تقسيم آيات الكتاب على القسمين المتقدمين. ولنا في التعبير القرآني ما يسند رؤيتنا هذه وتكرر ذلك في غير موضع منها ما يأتي:

❖ قوله تعالى: ﴿... **وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾{البقرة74}

❖ قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ...**﴾{آل عمران75}

❖ قوله تعالى: ﴿ **فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا** ﴾{النساء55}

❖ قوله تعالى: ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾{الأعراف168}

❖ قوله تعالى: ﴿**وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ**﴾ {يونس40}

وبغض النظر عن كون الكتاب هو القرآن أو غيره، لم أجد من المفسرين من ألتفت إلى أنّ التقسيم شمل قسماً واحداً من الكتاب فقط.

وممّا سبق يمكن- في ضوء ما توصلنا إليه آنفا في الآية موضع البحث- ملاحظة دلالة(**تأويله**)، فقد جاء في الآية الآنفة الذكر بقوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...**﴾{آل عمران7}.

فابتغاء تأويل المتشابه هي محاولتهم معرفة دلالته التي يمثّلها بعض ما سيقع من حوادث. ولعلّ في وصف المحكمات بأنّها أم الكتاب، ما يعزز هذه الدلالة وذلك عندما اقترن ذكر أم الكتاب بإمكان التغيير لما سيقع من حوادث بين المحو والإثبات؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾{الرعد39}. وكأنّ الآيات المحكمات بمنزلة المفاتيح أو الوسائل التي يتم بها التغيير فيما كُتِب مما سيحدث في المستقبل، كما يظهر من الآية. وهو ما تتوافق معه دلالة التأويل لدلالتها على ما سيحدث. وعلى ما يبدو أنّ المحكمات تنحو منحىً قريباً من الحقل الدلالي لمفاتح الغيب الواردة في قوله تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾{الأنعام59}. فمفاتح الغيب عنده لا عند غيره، كما أم الكتاب ﴿**وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[1].

على ذلك فعلم التأويل معرفة خاصّة يهبها الله لمن يشاء من عباده الذين يختارهم فيطلعهم على ما سيحدث في المستقبل ممّا هو في طيّ الغيب، ولعل بعض الآيات يمكن أن تشير إلى معرفة خاصّة ببعض ما سيحدث لا ما سيحدث على نحو عام كما قد يفهم من موارد سورة الكهف، وسيأتي ما يعزز ذلك لاحقاً!. وقد أشارت الآيات القرآن إلى أن هناك من يطلعه الله على الغيب كما في الآية:

قال تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا*إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**﴾{الجن26-27} وهو غيب محدود بالمستقبل، كما يدلّ سياق الآية. زيادة على ذلك أنّ هذه المعرفة معرفة إطلاع على الغيب لا علم الغيب كما قال تعالى: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**﴾{النمل65}؛ ومن أسمائه تعالى: ﴿**عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾ الذي تكرر في أكثر من مورد. وهو ما ينسجم مع دلالة (تأويل) التي ذكرنا أنها قدرة إظهار ما سيقع.

وقد أظهرت بعض الآيات أنّ بعض ما يقوم به من أطلع الله على بعض الغيب من عباده المقرّبين يكون موضع استغراب من غيرهم؛ لأنّ تصرفهم قائم على مستوى غير ظاهر من النظر إلى الأمور. ومن ثمّ ستكون بعض خطوات ما يقومون به غير واضحة لغيرهم ممن لم يرزقوا هذا العلم. كالذي حدث من نبيّ الله موسى (عليه السلام) مع العبد الصالح ممّا تقدّم في المبحث السابق.

ومن هنا يمكن أنْ تفهم دلالة (**تأويله**) في الآيات القرآنية المتبقيّة، وهي ما يأتي:

[1] ينظر: المتشابه والمحكم في القرآن الكريم(بحث في دلالة الألفاظ القرآنية): 89-90.

▪ قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**﴾ {الأعراف53}.

▪ قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ* أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**﴾{يونس39}.

فالموضعان يشيران إلى أحداث ستقع في المستقبل كما أنّ ما يحدث فيهما عبارة عن وقائع ظاهرة للعيان، لاستعمال الفعل ينظرون المستعمل قرآنيا لما ينظر بالعين[1]، مع ذكر الكتاب والتكذيب، الأمر الذي يدل على أن التأويل هو وقوع ما ذُكِر في الكتاب، وظهور ذلك عياناً.

وتضمن الموضعان تفصيلات كثيرة، تحيل الى موارد كثيرة في آيات قرآنية وفي هذين الموردين ما يفهم منه الإشارة إلى محدوديّة هذه المعرفة لتعلّقها بموضوع ما، ويبدو أن التأويل متعلق بحقبة من المستقبل، لا كل مستقبلّ لقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ**﴾. فهناك يوم معين يحث فيه تفصيل ما اشتمل عليه الكتاب، وهو أمر أطلع الله تعالى عليه بعض من اختارهم. ويبدو أنّهم قد أخبروا به الناس، فنسيه قوم وكذّب به آخرون وهم الظالمون وهناك من ينتظره لأنّ لهم فيه الهدى والرحمة.

ولألفاظهما اقترانات متعددة في مواضع أخرى من القرآن الكريم. لا مجال لتقصيّها في بحثنا هذا؛ ولنا معها في المستقبل وقفات مفصلة إن شاء الله تعالى.

منجزات البحث:

يمكن أن ألخصّ منجزات البحث فيما يأتي:

أولاً: يؤسس البحث الدلالي لألفاظ القرآن الكريم طائفة من التصوّرات المنهجيّة هي:

1. فهم القرآن يجب أن يتمّ بالقرآن نفسه، والنظر إليه بوصفه مدوّنة لغوية متكاملة، يفسّر بعضها بعضاً.
2. إبراز فكرة واحديّة الدلالة للفظة القرآنية أينما استعملت في القرآن.
3. جرى في ضوء منهج (المدونة المغلقة) النظر إلى كل لفظة من ألفاظ القرآن الكريم بوصفها كياناً لفظياً مستقلاً في دلالته عن دلالات بقية الألفاظ المشتركة معه في مادة الجذر. ولا يمنع ذلك أن يكشف البحث في مراحله المتقدّمة عن وجود تلك الصلة. فغاية الأمر أن يكون ذلك من القرآن نفسه لا من خارجه.
4. السياق اللفظي هو السياق الوحيد المعتبر في المدونة، أمّا سياق الحال أو المقام فهو سياق خارج المدونة فلا يعتدّ به هنا

ثانياً: الدلالة القرآنية للفظة **(تأويل)** هي: الحوادث التي ستقع في المستقبل والأسباب الخفيّة لما يقع، وهي معرفة من الله تعالى يعطيها بعضا من أوليائه يعرفون بها، قد تكون عبر الكتاب الذي يحتوي تفصيل كل شيء. وأنّ بعض ذلك له يوم يتحقق فيه. وهي دلالة ترتبط بالأعيان وليست هي من مستويات فهم القرآن الكريم ولا تتعلّق بالمستوى اللفظيّ، بل بالوجود(عالم التكوين).

ثالثاً: **(تأويل الأحاديث)** هي قدرة معرفيّة علّمها الله تعالى نبيه يوسف(عليه السلام)، تمثّلت في إظهار الأمور والحوادث التي هي في طيّ الغيب من نحو معرفة أرزاق العباد وحوادث الزمان، أمّا معرفة تفسير الأحلام فهي جزء يسير من معرفة تأويل الأحاديث.

رابعاً: من الألفاظ التي توقف عندها البحث لفظة (تعجبون، وأنذر الناس، وخُبْرا، والكتاب والأحاديث والحديث وآثارهم) وغيرها من الألفاظ التي كان لها مساس بموضوع بحثنا، وقد عمدنا إلى استكشاف دلالتها القرآنية على وفق سياقاتها القرآنية التي تمّ استقراؤها.

[1] الساعة في القرآن الكريم:22.

روافد البحث:

القرآن الكريم.

1. أصول التفسير والتأويل، كمال الحيدري، دار فراقد، مطبعة أستانة، إيران، ط2، 1427هـ-2006م.
2. أمالي الشيخ الطوسي، دار الثقافة، قم، ط1، 1414هـ.
3. البرهان في تفسير القرآن، هاشم البحراني، تحـ: لجنة من المحققين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1419هـ-1999م.
4. تفسير العياشي، محمد بن مسعود بن عيّاش السّلميّ السمرقنديّ المعروف بالعيّاشيّ، تحـ: هاشم الرسولي المحلاتيّ، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.
5. تفسير القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي(من أعلام القرنين3و4هـ)، صححه: طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم، ط3، 1404هـ.
6. التفسير والمفسرون، محمّد هادي معرفة، مؤسسة الطبع التابعة للأستانة الرضوية، إيران، ط2، 1425هـ-1383هش.
7. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت671هـ)، المحقق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، 1423هـ، 2003م.
8. دروس في المناهج والاتجاهات التفسيريّة، محمّد علي الرضائيّ الإصفهانيّ، تعريب: قاسم البيضاني، منشورات المركز العالميّ للدراسات الإسلاميّة، مطبعة صدف، ط1، 1426هـ.
9. الدلالة القرآنيّة وعلامات الظهور في ضوء مبدأ عدم الافتراق(سورة مريم عليها السلام أنموذجا)، بحوث المؤتمر السادس عشر لكلية الآداب، الجامعة المستنصريّة، 2009.(ص141- ص158).
10. الزينة في الكلمات الإسلاميّة العربية، أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي(ت322هـ)، حققه: حسين بن فيض الله الهمذانيّ، مركز الدراسات والبحوث اليمنيّ، صنعاء، ط1، 1415هـ-1994م.
11. الساعة في القرآن الكريم دراسة دلالية في ضوء منهج المدوّنة المغلقة، مجلة كلية التربية عدد خاص بالمؤتمر العلمي الثامن عشر لكلية التربية، الجامعة المستنصرية، 2011م. (ص11- ص23) ونشر بمجلة والقلم، ع24، س6، 2012م، (ص24- ص34).
12. سقوط الفخّارة فرجٌ لأمّة محمّد(صلّى الله عليه وآله) بحث في علامات اليوم الموعود، د. حسن عبدالغني الأسديّ، مركز الشهيدين الصدرين للبحوث والدراسات ملحقان مجلة سبيل، ع5 و6، بغداد، 2007م.
13. الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، تحـ: مصطفى الشويمي، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1964م -1383هـ.
14. علوم القرآن، محمد باقر الحكيم، مجمع الفكر الإسلامي، ط3، المطبعة مؤسسة الهادي، قم، 1417هـ.ق.
15. كتاب الغيبة، ابن أبي زينب محمد بن إبراهيم النعماني(من أعلام القرن الرابع)، تحـ: فارس حسون كريم، أنوار الهدى، مطبعة مهر، قم، ط1، 1422هـ.
16. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، 1405هـ-1363هش.
17. المتشابه والمحكم في القرآن الكريم(بحث في دلالة الألفاظ القرآنية) مجلة جامعة كربلاء، مج7، العدد1، إنساني، 2009.
18. مجمع البيان، أمين الإسلام أبي على الفضل بن الحسن الطبرسي (ق6هـ)، المجمع العالمي لأهل البيت: http://www.ahl-ul-bayt.org/Final_lib/index_arabic.htm

19. معجم القراءات، د.عبد اللطيف الخطيب، دار اسعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1- 1422هـ-2002م.
20. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، منشورات ذوي القربى، مطبعة أميران، إيران، ط2، 1423هـ-1381هش.
21. المعنى القرآني في ضوء اختلاف القراءات، د. أحمد سعد الخطيب، إهداء المؤلف لشبكة التفسير والدراسات القرآنية ، 1425هـ . www.tafsir.net
22. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهانى (ت502هـ) ضبط: هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1423هـ-2003م.
23. مفهوم الجملة عند سيبويه، د.حسن عبد الغني الأسديّ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007م.
24. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م.
25. منهج الدلالة القرآنية للألفاظ(مدخل إلى تفسير القرآن بالقرآن)، مجلة آداب المستنصرية، العدد49، 2009.
26. الميزان في تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1417هـ-1997م.
27. نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى(ت406هـ)، تحقيق: هاشم الميلاني، الناشر: العتبة العلوية المقدسة، 1431هـ-2010م.